الفصل الرابع
الأدب والأخلاق

الخلق والأدب الرفيع الذي يتحلى به الشعب الياباني من أهم الفضائل عندهم وهو في الحقيقة ظاهرة لفتت أنظار كل العالم وتحدث عنها آلاف الأشخاص الذين تيسر لهم زيارة اليابان في احترام وإكبار لهذه الأمة التي تجيد حسن المقابلة والتفنن فيه دون كلفة أو مشقة، وبرغم هذا فالأدب ليس في مقدمة الفضائل السامية وإنما هي نسيج متداخل لا يمكن فصل جزئياته عن أغلب الفضائل ولكنه عنصر تكميلي برع في استخدامه الطبقات النبيلة وتهافتت عليه وتنوعت أساليب التصرف بهذه الآداب وسنتناول فضيلة الأدب كما يفهمها الياباني ويشب عليها والتي أشتقها من بعض الفضائل السامية وأخذوا يدربون عليها أبنائهم بدءا من كيفية الجلوس في المجالس العامة وأساليب التعارف والمعاشرة وانتهاء بكل ما يتعلق بحياتهم وتصرفاتهم وغير ذلك . وقد وجدنا الأوروبيين ينظرون

بنظرة سخرية إلى إسراف اليابانيين في احترام المظاهر وأساليب التعارف وهو عكس السلوك المتبع لديهم الذي فيه تحفظات على عاداتهم وتقاليدهم هذه، ويلفت نظري هنا قول منشيوس عن ذلك " أن أولئك الذين ينظرون إلى المبادئ الأخلاقية نظرة استخفاف دائما يعلقون اهتماما كبيرا على الأمور المادية وأولئك الذين يعلقون ظاهريا أهمية كبرى على الأمور المادية هم دائما قلقون داخليا ويعملون دون مراعاة للمبادئ الأخلاقية وبالتالي فهم في وضع خطير خارجيا ومثل هؤلاء الأشخاص هم في خوف داخلي مستديم، فعندما يكون القلب قلقا ووجلا فان الفم إذا تناول طعاما فاخرا لا يتذوقه والأذن قد تسمع الأذان والأجراس والطبول ولكنها لن تسمع الموسيقى، وقد تشاهد العين التطريز الدقيق ولكنها ترى نمطا عاديا، وقد يرتدي المرء أكثر الملابس جلبة للراحة ويجلس على مقاعد وثيرة سوية ولكن جسده سينساها، وحتى لو أتيحت كل الأمور السارة في العالم لشخص واحد في هذه الحالة فلن يكون راضيا، فإذا ما سألته عما يريده وقد أعطي كل شيء طلبه ! ! فقد يكون مع ذلك ساخطا، من ثم فإنه لو قدم له كل شيء يبعث على سروره فإن الأسى يظل بالغا وإذا ما أضيفت اليه كافة الأشياء المفيدة فلا يزال الضرر بالغا، هذه هي حال الذين ينشدون الأمور المادية. إن الناس إذا أرادوا أن يرضوا رغباتهم يطلقون العنان لغرائزهم بدلا من

ذلك ورغبة منهم في حماية فطرتهم يعرضون أجسادهم للخطر ورغبة منهم في أن يمتعوا أنفسهم يضرون عقولهم بدلا من ذلك في اختلال لنظام سلوكهم.

ومثل هؤلاء الأشخاص برغم أنهم قد خلعت عليهم إقطاعيات بوصفهم نبلاء ونودي بهم حكاما لا يختلفون عن اللصوص العاديين لأنهم يركبون العربات ويرتدون قبعات الاحتفالات ولكنهم ليسوا بأفضل من الصعاليك وهذا ما وصف بأن المرء قد جعل من نفسه عبدا للأمور المادية. لابد من السيطرة على الطبيعة العاطفية فإن منشيوس يقول إنه يجب البتة إلا تكبت وهو يعتقد أنه لو وضعت العواطف في وضعها الصحيح لكانت – إذا ما استبعدنا منها ما هو فاسد – أعظم القوى يصلح من طبيعته العاطفية حتى يمكن أن تبلغ صورتها الكاملة الأخلاقية على الإطلاق.[٣٢]

والمعنى العميق لفضيلة الأدب والأخلاق هو أن تضحي ولا يزال هذا معناها ،وقد أمتد معناها أيضا ليدل على الطقوس المستخدمة في القرابين، ومن ثم امتدت لتغطي كل أنواع الاحتفالات والمجاملات التي هي من خصائص سلوك أولئك الذين يشكلون بلاط الحاكم، ويبدو أن منشيوس كان يقصد بالتعليم " التهذيب الأخلاقي " بصورة خاصة وهذا التهذيب كان يهدف إلى الحفاظ على طبيعة المرء

[٣٢] شافان Chavannes " مذكرات سي – ماتشين التاريخية" ٦٢/٢

الأصلية بلا مساس وقال أن ما يجعل الإنسان مختلفا عن الطيور أو الحيوانات فارق طفيف جدا هو الأخلاق، والأشخاص العاديون لا يأبهون به بينما يحافظ عليه الرجال العظماء وقال: "أن الرجل العظيم هو من لا يفتقد حب طفله له"[٣٣]، وبالرغم من ذلك فإن منشيوس يدرك أن الميول الفطرية للأخلاقيات التي ندعوها مبادئ وقيم وفضائل يجب غرسها وتطويرها حتى تصل إلى تأثيرها الكامل، وهذا التأثير لا يأتي فجأة نتيجة لميلاد أدبي أو لومضة من شعاع الاستنارة ولكنه بالأحرى نتيجة لسلوك الإنسان مجتمعا في حياته اليومية ومن ثم يقول أن الغرس الصحيح للطبيعة العاطفية للفرد يمكن أن يتحقق عن طريق تجميع القوى المستمر.

أما (موتزو) فذكر أن المرء يجب أن يسلك سلوكا أخلاقيا حتى في أبعد أعماق العزلة نظرا لأن في كل مكان أشباح وأرواح تراقب المرء.[٣٤]

ونادى منشيوس بأن على المرء أن يسلك دائما سلوكا أخلاقيا لأن أي شيء يفعله المرء سيكون له رد فعله على تطور الشخصية الذاتية للمرء سواء أكان هذا التطور خيرا أم شرا، إذا كان الغرض من الأدب حسن المقابلة واجتناب الخشونة مع من يحسن حديثه إليك فهذا التصرف عند نظر اليابان فضيلة مشوهة، فالأدب يفرض

---

[٣٣] وانج هسين شين " هاي تزو تشي تشيه " ٧/١٧ أ .

[٣٤] وانج هسين شين " هاي تزو تشي تشيه " ١٦/١٦ أ .

الاحترام للتقاليد العرفية التي ذكرنا بعضا منها والمراكز الاجتماعية القائمة على أساس الجدارة والاستعداد الشخصي وليس فوارق الطبقات. وإذا بلغت هذه الفضيلة أسمى درجاتها تصبح مزينة بأنبل العواطف وهي ميزة الصبر والرأفة التي لا يتخللها حسد أو غيرة ولا إدعاء أو أنانية وعدم التأثر بالشر والإساءة.

إن الكمال في المظهر يبعث على فرض الاحترام على الآخرين ولو كنت جالسا في هدوء لا يجرؤ أقل الناس أدبا وأكثرهم رذيلة على التفكير في الاعتداء عليك. ويقال أن البرابرة عند اقتحامهم لروما دخلوا مجلس الشيوخ وجعلوا ينتفون لحى رجالهم المحترمين وما كانوا ليقوموا بمثل هذا العمل لو كان موقف هؤلاء الشيوخ يدعو إلى الاحترام.

البعض يحلو له المقارنة بين الفكر الغربي الأوروبي و الفكر الياباني وثقافته فيقولون أن اليابان كانت تتلمذ على يد الغرب منذ أمد طويل ثم شبت وبلغت فتجاوزت أستاذها وتفوقت عليه لأنها لم تعرف التفريط في عاداتها ورفضت كل ما يصطدم بمفاهيمها وثوابتها في البناء الحضاري والثقافي لأبنائها وأعجبني (د. برهان غليون) الأستاذ بجامعة السربون في كتابه " اغتيال العقل "فقال: "أن التنافس الثقافي عامل أساسي في تقرير مستقبل الأمم والشعوب والجماعات ومصيرها ولا تتخلى جماعة عن ثقافتها أو تمايزها مهما كانت درجة هذه الثقافة من الضعف إلا أذا قررت الانتحار الذاتي والاندماج في

غيرها من الجماعات وحل جميع الثقافات وإدماجها في ثقافة عالمية موحدة يعني قتل إمكانية إخصاب الحضارة مستقبلا"

وعندما نتعرض ل (ديورنت) في كتابه " قصة الحضارة " نجده يعرف الحضارة على أنها" نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي وتتألف منه أربعة عناصر أساسية هي الموارد الاقتصادية والنظم السياسية ومتابعة العلوم والفنون والتقاليد الأخلاقية، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف وتحررت النفس من دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء بعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها .

فالأدب والخلق كيان معقد في مظاهر الحضارة ونهضتها ولكنه مجموعة من المعتقدات والتقاليد والفنون والآداب والعادات وجميع القدرات التي يكسبها الإنسان بصفته عضوا في المجتمع. المقصود من غايتنا محاولة فهم هذه الفضيلة وشرحها وإيجاد طريقة تتطلب قليلا من الجهود وتأتي بأكبر نتيجة للأناقة المرغوبة والذوق المطلوب الذي يكسب المظاهر رونقا ويبعث شعور بالتواضع والكرم ووحي لما يدور في صدور الناس من عواطف وميول تفرض علينا أن نشارك الآخرين أفراحهم وأحزانهم.